صفحة مجيدة من تاريخ المسرح المصرى

عبد الرحمن رشدى

وأثره فى تاريخ المسرح المصرى

الأستاذ زكى طليمات

هى الكلمة التى ألقاها الأستاذ زكى طليمات مفتش شئون التمثيل بوزارة المعارف فى حفلة التأبين التى أقيمت بدار الأوبرا الملكية يوم ٤ فبراير سنة ٩٤٠ برياسة معالى وزير المعارف احياء لذكرى مرور أربعين يوما على وفاة الممثل الكبير الأستاذ عبد الرحمن رشدى المحامى .

فى هذا المكان وعلى هذا المَمْثل، منذ نيف وسبعة وعشرين عاما خلت وقف شاب غض الأهاب ، فياض القوة ، فى عينيه بريق ، وفى صوته فورة العزيمة وعناد التصميم ، تلطف نبراتها حلاوة الحلم الممتع . وقف هذا الشاب فى ثياب الممثل يؤثر ويبهر ، فخط تاريخ التمثيل العربى الناشىء صفحة المجد الأولى ، وأشرق على المسرح المصرى فجر وردى جديد

وقف هذا الشاب يمثل ، وارتفع الهتوف الجهير فى رنين أجراس الذهب ، فجاوبته صيحات مدوّية منكرة ، هى أشبه شىء بصوت انهيار الأنقاض وتصدع الجدران . ذلك لأن العرف المصرى الجارى فى ذلك الوقت أصيب فى أعشاره ، وتصدعت منه دعامة قوية شامخة

هذا الشاب هو (عبد الرحمن رشدى) الذى ترك حلبة المحكمة إلى خشبة المسرح ، ونضا عنه حُلّة المحامى ليلبس حُلّة الممثل ، ويجر عالم القضاء ودنيا الوظائف الحكومية إلى عالم التمثيل ومستراد المرئيات ومجال الوهم المجسم ، وزهد فيما كان ينتظره من شارات الشرف فى عالم القضاء من أجل نيجان من الورق ، وأوسمة من الصفيح ، وسيوف من المعدن الزائف ...

أنى كل هذا طائعاً مختاراً وهو فى تمام عقله وكامل صحوه ، وافتدى صحو العيش بكدره ... وحياة المسرح فى مصر أكدار ومآس . أنى ذلك لأن هاتفاً خفيا أهاب به فى الساعة التى ترسم الأقدار فيها رجالها وتختارهم للقيام بأعظم الأحداث وجلائل الأمور

أجل أيها السادة ، كان احتراف عبد الرحمن رشدى التمثيل فى ذلك العهد حَدَثاً من الأحداث الاجتماعية فى مصر

ولماذا ... ؟

كان المسرح المصرى يرقى الدرج الأول من مرحلة جديدة . كان يحاول متطوحاً فيها أن يستخلص لذاتيته طابعاً جدياً يمت إلى الفن الخالص من حيث فن التمثيل وإخراج الرواية ، بعد أن مهد له (سلامة حجازى) و (عزيز عيد) سبيل ذلك بقدر ما وسعه علمهما وسمح به زمانهما . وكان العاملون فى المسرح رجالاً ونساء ، أخلاطاً سقيمة ممن خفت حمولتهم فى التعليم والتهذيب والتثقيف ، ولا أقول من حسن الاستعداد وخصب الموهبة . وكانت كثرتهم الغالبة ، ماعدا النذر اليسير الذى لا يؤبه له ، ممن تقطعت بهم أسباب العيش عن طريق احتراف المهن المألوفة . وكان الجمهور من أجل ذلك يرمق المسرح المصرى والمشتغلين فيه بعين ملؤها الازدراء والحذر ، إذ يرى فيهم قطيعاً من شذاذ المجتمع ، ونفايات الأوساط ، وقناصى الكسب السهل عن طريق حلق الشارب ، وتخطيط الوجه ، ورفع الصوت بالصياح والضجيج

فى ذلك العهد جاء الأستاذ جورج أبيض من أوربا ، وشاءت إرادة سيد البلاد إذ ذاك أن يكون للأستاذ أبيض يد فى ترقية المسرح ، فكان أن ألف فرقته العربية الأولى من أقرب ما بين تلك العناصر التى أجلت وصفها إلى شخصية الممثل الحق علماً وأدباً

وهنا جرت الأعجوبة إذ تقدم إلى الصف (عبد الرحمن رشدى) محطماً العرف الاجتماعى السائد ، فى الأسرة وفى الحرفة التى ينتمى إليهما ، مضحياً بمركزه الاجتماعى وبكرامة الرجل الكامل . أقول هذا أيها السادة وأكرره وأؤكده لأنه كان يوجد من الممثلين قبيل ذلك العهد من يحترف كى الطرابيش وبيع الأشربة والمثلجات بالنهار ليحترف التمثيل بعد ذلك فى الليل

ولا لوم ولا تثريب على فن التمثيل فى ذلك ، فقد أتى التمثيل مصر دخيلاً ، وفرض نفسه على المجتمع المصرى الذاهل كلون جديد من ألوان التسلية . والجديد الوافد من الحرف لا يلقى صدراً رحباً فى أول الأمر إلا ممن يعيشون على هامش بيئاتهم الاجتماعية ولا يعمل فيه غير من نبت بهم طرائق الكسب المألوفة ، أو من لم يحظوا منها بما يقوم بحاجاتهم

مضى الأمر واحترف عبد الرحمن التمثيل فكانت بداية ملحمة جديدة قوامها نزول شاب مثقف عامل مستكمل لمقومات شخصيته الاجتماعية الرفيعة إلى عالم ضئيل لا يصول فيه غير المكابر ، ولا تطول فيه غير قامة المشاغب والمداجى والعريض الصوت والمنكبين، عالم تحيط به الريب والشكوك، ويغلفه الكثير من سوء الظن ، نزل إليه عبد الرحمن بأقدام ثابتة ، يَعمُرُ قلبه عقيدة راسخة بأن المسرح كالمسجد يؤمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر

نزل وملء حواسه إيمان صادق بأن المسرح المصرى الناشئ لن يرقى ولن يؤدى رسالته فى التثقيف والتهذيب ، ما لم يتوله جماعة على قسط وافر من الثقافة والتهذيب ، وما لم يشرف عليه من يعيش له لا من يعيش منه ، وما لم يكفله الكفيل الصالح

كان عبد الرحمن محامياً فى نظارة الأوقاف ، وكان يتقاضى مرتباً شهرياً ثابتاً قدره أربعة عشر جنيهاً ، فرضى أن يعمل ممثلاً بمرتب قدره اثنا عشر جنيها فى هيئة غير ثابتة فى فرقة تسير — كما سبقتها الفرق التى تقدمتها — مضطربة حائرة ، كسفينة هزيلة البناء فى بحر عجاج ، وفى هذا ما يمض دليلاً على أنه لم يحترف التمثيل ليزداد مرتبه، أوليجمع مالاً عجز عن جمعه فى حرفة المحاماة

ومثل عبد الرحمن أدواراً سجلت مواهب الممثل فى نسقها العالى ؛ ودوّى مجده دوياً أخذ على هواة التمثيل مشاعرهم ، فتحركت نفوسهم ، وتطلعوا وتتطلع غيرهم ممن أخذوا يمرنون محاسن التمثيل على يد المحامى الممثل ، وقامت فرقة جماعة أنصار التمثيل تعمل للفن برياسة المرحوم محمد عبد الرحيم الذى كان يشغل وظيفة أستاذ بالمدارس الثانوية

ولكن عبد الرحمن اضطر بعد شهور — ويا للعجب — أن يترك فرقة أبيض مرفوع الرأس ، لأن النزعة المادية كانت تغلب كثيراً نزعة الفن الخالص لدى بعض مديرى الفرق المصرية ، فتأذت نفسه من ذلك وفترت آماله ...

وعاد إلى المحاماة الحرة فى مكتب أنشأه بمدينة الفيوم لقى فيه نجاحاً كبيراً . وهكذا عاد النازح إلى بيته واستقر فيه ، وحسب الناس أن مغامرة عبد الرحمن فى احتراف التمثيل إنما كانت بدوة من بدوات النفس الفتية

* * *

يا للهاتف الغامض الذى ينادى النفس فتلبى النداء ، ويقلّبُ القلبَ على الحجا والروية ؟ ؟

لم يمض زمن طويل حتى رأينا عبد الرحمن يعاود مغامرته الأولى بنفس الحماسة الأولى ويضحى بالربح الواسع الذى كان يدره عليه مكتبه بالفيوم . أنى كل هذا ناسياً ما جرته عليه مغامرته الأولى، ضارباً عرض الحائط بنصائح أصفيائه ممن رأوهم أن المسرح المصرى ما برح غير جدير بالتضحية من جانب صفوة المتعلمين

ولكن الهاتف المجهول كان يسد مسامعه ، والقدر يدفعه إلى أن يستقيم على محتوم قضائه

عاد عبد الرحمن إلى العمل فى فرقة الأستاذ أبيض بعد أن انضم إلى فرقتها وجيه من وجهاء مصر ، وسليل بيت كبير من بيوتاتها ، وهو عمر سرى بك نجل المرحوم حسين سرى باشا ؛ وكاد وجيه آخر من طرازه ، وهو المرحوم محمد تيمور بك ، نجل المرحوم أحمد تيمور باشا ، وتشريفى حضرة صاحب العظمة حسين كامل سلطان مصر ، كاد أن يأتى نفس المفاجأة ؛ وكدت بدورى، على الفارق البين، أن أركب نفس الطريق وأترك دراستى الثانوية فى مرحلتها الأخيرة ...

ومهما انتحلت للمرحوم تيمور ولنفسى من الأعذار التى حالت دون احتراف التمثيل فى ذلك العهد ، فلا أجد بدًّا من المصارحة فى هذا الموقف الذى أعطى فيه « ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر » بأننى وتيمور كنا أوهن من عبد الرحمن عزماً وألين عوداً

* * *

وبدأ الدور الثانى من جهاد عبد الرحمن وبدأت معه الجمعيات التمثيلية مرحلة جديدة اتسمت بالجهاد الصادق وبوفرة عدد العاملين فى الجمعيات ، وجلهم من صفوة المتعلمين طلبة كانوا أو موظفين

ونضجت لعبد الرحمن طريقة فى التمثيل حاكاه فيها ضعاف الشخصية من الهواة والممثلين ، وتنبهت الأقلام المصرية إلى واجبها فقام الأستاذان إبراهيم رمزى ولطفى جمعة يدعوان إلى استقلال المسرح المصرى بروايته

أيها السادة :

يقولون إن التاريخ يعيد نفسه ... وما أصدق هذا حتى فى أتفه الأمور !

لم يمض وقت طويل على عبد الرحمن فى هذه الفرقة حتى اضطر إلى تركها لأسباب لا يسمح المقام بذكرها ، ولكنها أسباب تشرف عبد الرحمن ، الرجل والممثل ، الذى لم يعمل فى التمثيل ليجمع المال من ورائه ، وليستثمره كما يستثمر التاجر الملهوف على الكسب متجراً انتهى إليه فى آخر الزمان !

ورجع عمر سرى بك إلى قصره العاجى ينفض عن أقدامه غبار طريق شائكة بعد أن ضاق ذرعاً بالفرقة وبنفسه ، وبقى عبد الرحمن واقفاً مثبتاً فى حلبة الجهاد رجله ، وليس لديه مايدفع عنه غائلة الأيام ، بل وآلام الحاجة والضيق إلا قلب كبير يعمره الإيمان بالله ، وبالمبدأ ، وبالفكرة العاملة

أيتها الحاجة ، إنك قاسية !

أيها الجوع ، إنك كافر !

ولكن يشاء الله أن يكتب فى نفوس أصفيائه من البشر مايجعلهم يزدرون بالمحن ، فتراهم يدفعون الحاجة بالصبر ، ويستعينون على الجوع بالكفاف من العيش .

وقف عبد الرحمن هذا الموقف الرائع ، فتجلى عناد التصميم وثبات العقيدة وجلال الرجولة فى أكمل معانيها .

كان فى وسعه أن يعود إلى المحاماة ، أو أن يلتحق بوظيفة حكومية تقيه شر ما يلقى . كان سبيل الخلاص ممهداً أمامه ، ولكن عبد الرحمن أبى أن يفعل شيئاً من هذا ، لأن رسالته فى المسرح المصرى لم تكن قد تمت فصولها ، وصاحب الرسالة مجاهد وشهيد ، والشهداء يأبون إلا أن يكونوا شهداء وقد يكون خلاصهم بين أيديهم .

وسرعان ما انتهى دور الاستجمام والتفكير إلى دور الوثوب والعمل . فألف عبد الرحمن فرقة تمثيلية باسمه ، على نظام الحصص وهو نظام جديد ، يقضى بتوزيع قدر الدخل الوارد من إيراد الحفلات تبعاً لما خص به كل ممثل أو ممثلة .

فلا مرتبات ثابتة ، ولا أجور مقيدة .

كان تأليف هذه الفرقة حدثاً جديداً فى المسرح المصرى ، لأنها لم تتألف من أنقاض الفرق العاملة ، وإنما تألفت فى جلها ولا سيما فى عنصر الرجال فيها من شباب جدد مثقفين ، ينتمون إلى بيئات اجتماعية لم تسخ بأبنائها على التمثيل ، جمعت الفرقة الجديدة الموظف الذى هجر وظيفته ، والطالب الذى قطع دراسته العالية أو الثانوية ، اجتمعوا كلهم فى صعيد واحد ، بعد أن أنضجتهم الهواية الصادقة بالعمل فى الجمعيات التمثيلية ، اجتمعوا بعد أن ترسموا طريق الفداء الذى شقه الزعيم المجاهد عبد الرحمن فضحى كل منهم بما كانت تعده لهم وظائفهم أو دراساتهم من مستقبل زاهر ، أقل مزاياه أنه مستقبل لايسلم أصحابه إلى العيش من وراء مهنة مضطربة حائرة ، غرمها مضمون ، وغنمها مشكوك فيه ، تكابد إغفال الناس ، بل واذدراءهم .

على هذا النحو ، ألفت أول فرقة مصرية من عناصر نابهة ، فما لبثت أن أثبتت حسن اضطلاعها بمهمتها ، واستطاعت أن تشق طريقها ، وتركز أعلامها فى القطر ، من الثغور إلى أقصى الصعيد ، ورددت أرجاء هذه الديار بيرات حارة لأصوات فنية ، وصارت الفرقة بهيئتها ورئيسها رمزاً للتضحية فى سبيل المبدأ ، ومظهراً من مظاهر النهضة المصرية ، ووجهاً من وجوه اليقظة القومية

فى هذه الفرقة عمل الأساتذة سليمان نجيب مدير هذه الدار ، ومحمد عبد القدوس ، ومحمد فاضل ، ومحمد توفيق ، والمتكلم أمامكم ، عملوا ممثلين محترفين !

أيها السادة

حاذروا زوالاً إذا قيل تم الأمر وبلغ مداه . وحقق مقاصده !

بعد جهاد مستمر ، دام ثلاث سنوات وشهوراً ، اضطر عبد الرحمن أمام الأزمة الاقتصادية التى شملت العالم بأسره ، بعد انتهاء الحرب الماضية ، أن يفض الفرقة ، وأن يترك الميدان مفتدياً ذلة الخاضع بعزه المغلوب ، لأن الكساد الذى شمل سائر مرافق الحياة الاجتماعية بفعل تلك الأزمة ، كاد يفرض عليه فرضاً أن ينزل إلى مستوى السواد الأعظم من الجمهور ، وأن يتملق رغباته ، وكانت رغبات الجمهور فى ذلك العهد ، عهد الثورة المصرية ، متقلبة لا تستقر على حال ، ولا تعنى من التمثيل ، وهو لون من ألوان التسلية ، إلا بما هو سطحى وعابر ، لا يكد الذهن ولا يجهد الخاطر

حلت الفرقة ، ولكنها حققت الغرض الأول من قيامها ، وهو جعل المسرح فى ممثليه والقائمين عليه من الطبقة المثقفة التى اجتلبت حسن الظن بفن التمثيل

حلت الفرقة ، ولكن بعد أن جعلت من التمثيل العربى حقلاً جديداً للنشاط الذهنى من جانب طبقة من الناس ما كانت تأبه له قبل قيامها . وهكذا بدأ عهد إصلاح فى المسرح المصرى ، وانفتح باب للتجديد فيه ، لم يلبث أن دخله الأستاذ (يوسف وهبى) ، بمجل المرحوم عبد الله وهبى باشا ، ليأخذ المشعل من يد قائد الطليعة ، ويعمل للمسرح مجداً متفانياً فى جهاده ، مضحياً بثروته الشخصية ، وما آل إليه من مال أبيه الراحل

هذا هو مجد عبد الرحمن رشدى ، وبهذا يستقر اسمه فى رأس

قائمة أبطال الطليعة الذين عملوا للمسرح المصرى مخلصين للمبدأ

عاد الممثل ومدير الفرقة إلى المحاماة للمرة الثالثة ، ولكنه عاد إليها فى هذه المرة كسير القلب ، لأنه استيقن أن الزمان يضيق به وأن لا سبيل إلى فرض إرادة على هذا الزمان ، الذى يأخذ من المصلحين بقدر ما يريد ، لا بالقدر الذى يريدونه ويستطيعون تقديمه

وكان ينتابه حنين إلى المسرح ، وهو يجالد الأيام ويجالده ، فكتب له أحياناً ، وعمل عضواً عاملاً فى اللجان التى ألفتها الحكومة لترقية التمثيل ، وأذكر من مسرحياته :

(تحت العلم) ، و (البؤر المرخصة) ، و (المأمون)

وألفت الفرقة القومية بمال وزارة المعارف ، فلم يتوان عن تلبية النداء ، ورجع القائد والزعيم جندياً متواضعاً يعمل فى الصف بالإشارة ، ولا كبر ولا خيلاء !

أحبك يا عبد الرحمن فى تواضعك وسماحتك ، وأحنى الرأس إجلالاً لك ، قائداً كنت وزعيماً ، ومؤتمراً أصبحت وجندياً

ولم يطل مكث (عبد الرحمن) فى الفرقة القومية ، لأسباب خاصة ، فتركها فى نفس الوقت الذى زهدت فيه العمل فيها

وشاء القدر أن يجمع شملى وشمله للمرة الثالثة فى مكان واحد ، وأن نعمل لغرض واحد فى وزارة المعارف ، وهو تهيئة جيل جديد للتمثيل ، يقبل عليه ويعمل له ، إذا استطاع ، مخلصاً ومجدداً

هذا هو بعض عبد الرحمن رشدى ، الذى اجتمعنا اليوم مختارين لتأبينه ، وتكريم ذكراه ، فيبكى كل واحد منا فى شخصه قطعة من ماضيه ، أو صفة من صفات الرجولة الباهرة ، أو سمة من سمات البطولة الحقة ، أو مظهراً من مظاهر الجهاد والتضحية

هذا هو عبد الرحمن رشدى الممثل فحسب ، وأتجاوز عن سائر نعوته وألقابه ، وقد كان المحامى القادر ، والموظف الكبير ، وابن البيت الكريم . أفعل هذا عامداً متعمداً ، لأن الممثل عبد الرحمن رشدى ، أكبر من كل هذا ، وأنبه ذكرا ، وأبعد أثراً من كل هؤلاء فى الدور الذى لعبه فى حياته ، لأن الممثل عبد الرحمن رشدى ، واحد فى نسجه ، منفرد بما آل إليه أمره ، وما استقام عليه بمحتوم قضائه

وهأنذا أختم كلمتى بالهتاف لهذا القائد الذى سقط فى حومة الجهاد ، وسيفه فى يمينه ، بعد أن أفرغتُ كلمتى هذه فى سمع الزمان الواعى ، وهى كلمة تنسم بوفاء التابع الأمين ، وخبرة الصديق ، وصراحة الفنان .

كبرياء . . .

للدكتور ابراهيم ناجى

نِداؤكَ يا فؤادُ . كفى نداء ... عفاءا نضرةَ الدنيـــا عفاء

رُوَيدك أيها الجانى ، كلانا ... لصاحبه وما يدرى أســـاء

أنا ظمآنُ لم يلمع سرابٌ ... على الصحراء إلا خِلْتُ ماء

وأنتَ فراش ليلٍ كلُّ نور ... تبِعتَ وكلُّ برقٍ قد أضاء

عشقتُ فاشدَوْتُ الشعر شعراً ... ولكن اعتصرتُ لكِ الدماء

فإن أكُ فى هواك أضعتُ قلبى ... فلست أُضيعُ فيك دمى هباء

غرامك كان محراب المصلى ... كأنى قد بَلغْتُ بك السماء

خلعتُ الآدمية فيـــه عنى ... ولكن ما خلعتُ به الإباء

فلم أسجد بســـاحته رياء ... ولا كالعبـــدِ ذُلا وانحناء

ولكنى عشقتك عشقَ حُرٍّ ... يموت متى أراد وكيف شاء ...

ناجى

أقف بعد ذلك صامتاً ، وأمسك عامداً عن استنزال شآبيب الرحمة على البطل الراحل ، كما تجرى بذلك تقاليد البيان فى هذا المقام ، لأن هذا البطل الحر الطليق ، كان يمقت التقاليد ؛ وكانت حياته حرباً على التقاليد ، ولأن العناية الإلهية التى رسمته مجاهداً ، وجبلته مصلحاً ومغامراً ، أجل وأرفع من أن يتطاول عليها بالنداء والتنبيه صوت مصدره شخصى الضعيف الحزين

بل إن هذه العناية الإلهية الرحيمة ، قد شملته منذ أن حان حينه ، وتهيأ للقاء الرفيق الأعلى ، فعجلت نقلته من هذه الدنيا ، ومضى عنها ما بين غمضة عين وانتباهتها . وكأنى بها نفست به على المرض الطويل ؛ وضنت به على تجارب الأطباء . وعبث المرضين ، وعصمته من عذاب دونه كل عذاب ، وهو صمت الجسد المتداعى عن إجابة الروح القوى ، والنفس الوثاب

أعود فأقول : إننى لا أفعل هذا ، لأن عبد الرحمن رشدى مبعوث عناية ، ورجل أقدار ، ونفس من أنفاس الرحمن الرحيم .

زكى طليمات